شذرات في الانشاء

[المقتطف. ذكرنا في جزء يونيو ان حضرة الفاضل محيي الدين افندي الخياط طبع ديوان ابي تمام بعد ان فسّر الفاظهُ اللغوية. وقد اطلعنا في صدره على فصل كبير الفائدة يتناول كثيراً من المواضيع التي يبحث فيها الآن ادباء اللغة كحقيقة الشعر ونبوغ غير العرب فيهِ والشعر العصري والتعريب والتوسُّع في الاستعمال فرأينا ان ننبتهُ هنا برمتهِ تعميماً لنفعهِ مكررين الشكر لحضرة منشئهِ محيي الدين افندي الخياط راجين ان آراءهُ الصائبة تشجع كثيرين من كتَّاب العصر على كسر قيود التقليد]

الشعر

الشعر شعور لطيف احست بهِ الارواح قبل الاشباح ووجدان وجد مع الغرائز والفطر قبل الهيولى والصور يجري على الخواطر مجرى الكهرباء في مساري الهواء ويسيل في الضمائر مسيل الماء في ثنايا الادمغة. فهو اشبه بسلك اثيري بين القلب والدماغ يسري على اهواء الضلوع وهذه تدفعهُ بقوتها الكهربية (تكهربًا معنويًا او حسيًا على الرأي الحديث) الى مركز الدماغ ومنها الى القوة الخيالية التصويرية ومن هناك تجذبهُ اسلة اللسان المغناطيسية فتحملهُ على جناح تموجاتها الهوائية (المجازية) الى عالم الآذان فيدخلها باستئذان او بلا استئذان

ما لنا وللخيالات والتصورات فالشعر روح غنائية دبت في كل امة وسرت منها الى كل طبقة « ان صح ان يطلق الشعر على كل ما يستفز الالباب ويستخف الارواح ويختلب الافئدة ويستهوي العواطف وان كان عامياً محضاً كالمواليا والزجل والقوما وكان وكان والمطاول والمعنّي وما يلحق بها من هذا القبيل مما يفوق البعض منهُ على اكثر الشعر الموزون » وانت خبير ان هذا هو الاصل في اشتقاق هذه اللفظة (الشعر) ولذا كانت جاهلية العرب في صدر الاسلام تذهب الى ان بلاغة القرآن الباهرة وفصاحتهُ المدهشة هما من الشعر وان القرآن الكريم كلام شعري لان رشاقة الاسلوب ومتانة الديباجة وابداع المفردات وحسن التصوير مما يهيج الفطرة الشعرية سواء كان الكلام موزوناً ام غير موزون

شيوع البلاغة في الشعر

ثم انهُ من الطلم الفادح والتحيز الفاضح ان تحصر البلاغة والفصاحة وحسن التصوير في امة دون امة او طبقة دون طبقة فانها حق شائع بين جميع الامم وما يحتكرها احتكار السلع لأنَّ قليل الاطلاع قصير النظر في شؤون البشر لكن المتربع فوق قمة الادراك على بعد النكر

والمشرف من سامق نظره على سهوب هذه الشعوب والامم يعتقد ان الناس اكفاء وامثال في جميع المواهب الانسانية وان بني الانسان في كل لسان هم من طينة واحدة وعنصر واحد او كما يقول الباتيون من فصيلة واحدة وانما تتفاوت المنازع والمشاعر واللغات نفسها بعض التفاوت اندفاعاً الى ما يطرأ عليها وعلى بنيها من الادوار والاطوار والبيئات في محيط هذه الكرة المحاطة بهذا الفضاء اللانهائي

نعم ان النابغين من الشعراء الذين يستحقون ان يطلق على كل واحد منهم لقب شاعر هم افراد قلائل في كل امة وفي كل جيل وهم الذين خُلقوا ليكونوا شعراء اي ان كيانهم الفطري حكم عليهم بان يكونوا شعراء مثل زهير في الجاهلية و ابي العلاء في الاسلام وعمر الخيام في الفرس وقد قيل عنهُ انهُ اخذ معاني ابي العلاء ونظمها بالفارسية وهي دعوى لاينهض بها دليل لان الفضل لم يختص بامة ولا بلسان وتوارد الافكار من الامور المسلمة. ومثل هوميروس صاحب الالياذة في اليونان وهو الذي ذكرهُ ارسطو في كتاب المنطق واثنى عليهِ ومثل شكسبير في الانكليز وفيكتور هيغو في الفرنسيس وكمال في الاتراك وسواهم في سوى ما ذكرنا من الامم والشعوب

ويلحق بكل من هؤلاء شعراء كثيرون معاصرون وغير معاصرين لهم وربما وجد من هو اقدر منهم على سبك الالفاظ ومتانة الديباجة وسلامة الاسلوب ممن هو اقوى عارضة وافصح لهجة غير ان روح الشعر التي وجدت في هؤلاء مع صفاء الذهن وسمو المدارك ودقة الشعور وبُعد التصور والفلسفة العالية والحكمة الباهرة والترفع عن السفاسف جعلتهم يشرفون على شعراء الامم من مكان شاهق ومنزل سحيق

الشعر والعصر

الشعراء في كل امة وفي كل جيل طرأ على اكثرهم عصور وازمان كانوا فيها اصحاب السيطرة الحقيقية على الرأي العام لا سيما في الجاهلية والاسلام ولنا على هذه الجملة دلائل لا تحل لسردها وعلى كلٍّ فهم بلا شك عنوان الامة وممثلو تاريخها واحوالها الاجتماعية الاَّ ما شذ في بعض العصور التي اصبح بها الشعر تقليداً بحتاً لا يؤخذ منهُ شيء من الاحوال الاجتماعية بل ولا يصور اخلاق قائليهِ اذ اصبح عبارة عن قوالب لفظية بمعان تكاد تكون محصورة يفرغ عليها المشتغلون بالشعر جميع الصور والتماثيل التي انشأها قبلهم الشعراء الفطريون عن شعور حقيقي واحوال اجتماعية وجدوا فيها وتركوها لبني الاعصر التالية صورة لفظية معنوية باقية تمثل اخلاقهم وعاداتهم كما تمثل الآثار القديمة الخالدة اخلاق واحوال الامم البائدة

وبانيت المقلدين وقفوا عند ذلك التقييد الصرف الذي هو اشبه بترجيع الصدى او ترديد الببغاء او تمثيل الحاكي «الفونوغراف» لصور الالفاظ فانهُ كان على الاقل يحفظ لنا تلك الصور الجيدة او يحيي لنا بالاحتذاء ما درس من تاريخ الاباء بل هم تنزلوا عن تلك الذروة السامقة الى وهاد وشعاب حصروا فيها الشعر ضمن دائرة لا تكاد تجاز ما درج عليهِ بعض الشعراء حتى هذا العصر من الغزل والمديح والتهنئة والرثاء فضلاً عن تنزلهم في الاسلوب والديباجة والمفردات الى درجة الرثاثة والابتذال

ان الجاهليين الذين نتمنى ان نحذو حذوهم كما يريدهُ الراغبون في بقاء القديم على قدمهِ والنافرون من كل جديد قد ضربوا من الشعر في كل مذهب ووجلوا يدٍ في كل مشعب فترى شعرهم يضم بين اعاريضهِ وضروبهِ الوصف والترسُّل والتغني والتغزل والمدح والهجاء والعتب والرثاء وتدوين الاخبار وضرب الامثال ووضع الحكم والتفاخر والتناظر والحض والتهييج . كل ذلك بسائق الوجدان ودافع الشعور بلا تكلف ولا تقليد الى ما يقع تحت الحس وتكاد تتملهُ النفس . وهذا كل ما يريدهُ العصريون فهم لا يريدون ان يأتوا ببدع جديد بل يريدون الرجوع بالشعر الى ما خطهُ شعراء الفطرة البدويون الذين تفننوا بوصف الناقة والجمل والسهل والجبل والفرس والغزال والهودج والظعن والاسد والنمر والسيف والرمح والقوس والسهم والفلك والنجم الى سائر ما وقع تحت اعينهم من الجمادات والحيوانات والطيور وما وطئتهُ اقدامهم من سباسب وقفار ومنازل وديار واطلال وآثار ورياض واشجار وجداول وانهار واضعين لكل مسمًّى اسماء تكاد تجتاز حد الحصر وتعجز او تعجز عن الزيادة عليها شعراء الدهر . نعم ان تلك الاسماء صفات لكن اكثرها غلبت عليهِ الاسمية وهي على كل حال تدل على مبلغ تفننهم وتلاعبهم في المفردات والمواضيع كما يريد العصريون الذين يرون امام حسهم البخار يحملهم على جناح البحار ويقلهم في الصحارى والقفار على ما لا يكاد يوجد لهُ اسم غير القطار (وهو قديم) بدلاً من تلك النوق او السفن البرية التي كانت تخر في عباب القفر وتعلو اسماؤها واوصافها عن الحصر

فلا بدع بعد هذا اذا نزع الشاعر العصري الى التفنن بالقطار ووصفهُ كما تفنن اسلافهُ البدويون بوصف تلك النجائب ترتك على الربى والسباسب وان شغلتهُ الحضارة عن اختراع الاسماء فقد يتيمم بالتراب مَن فقد الماء

ثم هم يرون الآن امام اعينهم الاسلاك البرقية والاثيرية وما ظهر او سيظهر من غرائب الكهرباء في هذه الدكناء وما بين تلك الزرقاء فلا غرو حينئذٍ اذا مالوا الى التلاعب

باوصافهم كما كان اسلافهم روّاد الكلإ وورّاد الماء يتلاعبون بوصف الودق والبرق والسماء والماء والمنزل والدار والاطلال والآثار

ثم هم يرون الآن ما يسمونهُ بالفونوغراف والسنغراف والفوطوغراف والاتوميل والبالون واذنابها مما لاتكاد تجد لهُ اسماً واحداً فضلاً عن اسماء متعددة فلا عجب بعدها اذا ذهبوا في اوصافها كل مذهب كما كان آباؤهم الجاهليون يتشعبون بوصف الطيور والاصوات وتدوين الاخبار والوقائع وضرب الامثال كل مشعب

ثم هم يرون جيرانهم من الامم يجدّون وراء العلم ومرافق الحياة وغضارة العيش او ما يسمون مجموعهُ بالتمدن فلا غرابة بعد هذا وذاك اذا قاموا الى حض بني قومهم وقبيلهم واستنفارهم لمجاراة جيرانهم في كل عمل نافع لهم ولشعبهم غير مباين لعاداتهم وتقاليدهم مذكرين لهم بمجد آبائهم على لسان الشعر كما كان اسلافهم سكان بيوت الشعر يتفاخرون ويعددون احساب قبائلهم ويتناشدون اشعار الحماسة والفخار والحض والاستنفار في مواسمهم ومجامعهم في تلك القفار

وخلاصة القول اننا اذا دققنا النظر وعرفنا الغاية من الشعر حكمنا بان شعراء البادية الفطريين هم الشعراء العصريون الحقيقيون ولو نفخ الله في ارواحهم ورأوا ما رأى العصريون لما عدمنا للقطار وامثالهِ من المخترعات العصرية والمكتشفات الوفاً من الاسماء والصفات ولكانت لنا من الشعر صورة مجسمة لتاريخ هذا العصر تبقى ما بقي الدهر ولنا الآن من رجال النهضة الشعرية الحديثة ما يسد هذه الثلمة ويضمن لنا سير اللغة والشعر عن النقطة التي قفت بعض ظروف العصور بالوقوف عليها

اللغة والتوسع في الاستعمال

ثم لا بد لنا هنا من التنبيه على امر ذي بال وهو ان اللغة العربية لاتحيا الحياة الطيبة ولا تنتشر انتشاراً واسعاً في هذا العصر الاّ باستعمالها دون اعنات ولا تضييق على الوجه الذي اتصل بنا من ابنائها الاولين نقبل الدخيل فتعرّبهُ وتعدهُ منها وتتصرف بهِ وتتوسع في المجاز والاستعمال كما توسع ابناؤها الاصليون بشرط ان تكون خالصة من شين اللحن ورثاثة الاسلوب وان تتجافى عن التقعر في انتقاء الالفاظ الحوشية القلقة المهجورة وان تبتعد عن الاغراب او "المعاظلة" على رأي البيانيين في التركيب وان لا يسرع المشتغلون بها الى اعتقاد الخطإ في ما يتراءى لهم انهُ مخالف لما تعلموهُ من الرسوم او القواعد التي وضعها الواضعون على حسب ما اتصل بهم من كلام ابناء اللغة الاولين اذ الناقد البصير يعلم ان تلك الرسوم او القواعد غير ضابطة وغير مستقصية لانهُ لم يتصل بواضعيها الاّ القليل من كلام ابناء اللغة الاولين

كما حققهُ المحققون. وما اتصل اليهم مما خالف تلك الرسوم سموهُ شاذًّا ثم لم يجيزوا ان يقاس عليهِ

الدخيل

ترى بعض الكتبة او الشعراء يأبى او يأنف من استعمال الدخيل الذي لهُ مرادف في العربية ولم يعلم ان القرآن الكريم نفسهُ استعمل الدخيل مع وجود المرادف لهُ وقد نسج على منوالهِ جميع كتَّاب العربية وشعرائها بلا استثناء ولعل اكثرهم يخفى عليهِ ما استعملهُ والَّا فاي لفظ دخيل يتعذر وضع مرادف لهُ لكن النزوع الى المرادف قد يفضي بعض الاحيان الى الاعنات فضلاً عن ان الدخيل مما يزيد في ثروة اللغة ولا يجعلها ضمن دائرة مفرغة الحلقات وان كانت هي من اغنى اللغات . وذلك الآن هو شأن اللغات الحية التي تقبل كل دخيل على انها ان لم تقبلهُ اختيارًا فقد قبلتهُ وستقبلهُ اضطرارًا جريًا على الناموس الطبيعي العام . ولو بعث الله روح الشهاب الخفاجي (صاحب شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل وصاحب الانتقاد على درة الغواص) الى عالم الاحياء ورأى الالفاظ العصرية التي اوجدها العلم العصري الحاضر واطلع على تطور اساليب الكتابة وتوسع الكتبة في الاستعمال لضم الى كتابهِ الشفاء عدة كتب مؤلفة من الفاظ الفوطوغراف والفونوغراف والسنغراف والتلغراف والتلفون والغاز والاتومبيل والبالون والوابور والوف من اسماء الآلات الميكانيكية وسائر ما اخترع في هذا العصر وعد من ابكار افكار ابنائهِ ولزاد على انتقادهِ تلك الدرة درة الغواص درًا ناصعة بالمجاز لامعة بالقياس والتوسع في الاستعمال . انتهى

[المقتطف] لا بدَّ من ان القارئ الكريم الذي قرأ نبذ الفصل المتقدم نبذةً نبذةً رأى فيها كلها ما ينطبق على ما تقرَّر في ذهنهِ بمطالعة المقتطف السنين الطوال وما يؤيدهُ كل عقل لم يقيدهُ الغرض ولاسيما النبذة المعنونة " باللغة والتوسُّع في الاستعمال " فان الكاتب اشار فيها الى ما تحيا بهِ اللغات وهو قبول الدخيل والتجافي عن الالفاظ المهجورة والابتعاد عن الاغراب . والنبذة المعنونة " بالدخيل " حيث قال ان القرآن الكريم نفسهُ استعمل الدخيل مع وجود المرادف لهُ وقد نسج على منوالهِ جميع كتَّاب العربيَّة وشعرائها بلا استثناء . والدخيل يزيد في ثروة اللغة وهذا شأن اللغات الحيَّة التي تقبل كل دخيل على انها ان لم تقبلهُ اختيارًا فستقبلهُ اضطرارًا جريًا على الناموس الطبيعي العام

هذا والكتَّاب الآن بين من تراهُ واقفًا لهم بالمرصاد يعنِّفهم على كل ما يعدهُ خارجًا عن قيود اللغة وبين الناموس الطبيعي الذي يوجب التغيير والتبديل والنمو والاندثار والزيادة والنقصان مع حفظ النوع جملة . وسيكون الفوز للاصح على كل حال